تكريم الإسلام للعقل

حسني عبد الحليم حنفي ،

تمهيـــد . .

العقل هو تلك الجوهرة الفريدة . والدرة الثمينة ، التى تميز بها ابن آدم عن سواه . . . يقول الله تبارك وتعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(١)

والإنسان بتلك الجوهرة أصبح يمثل عالماً مستقلا فى كون الله الكبير له جوانبه الباهرة وإبداعاته الرائعة .

والقرآن المجيد الذى أنزله الله على محمـــد ﷺ ، يدعو إلى النظر فى ملكوت الله الشامخ والتغلغل فى أعماق أعماقه لاستيطان أسراره والوقوف على نواميسه - وهو يخاطب العقل الانسانى ويتوجه إليه أن يعرف مكانته اللائقة به ، ويدرك وضعه الصحيح وهو أيضاً وضع القيادة والزعامة والإبداع والاستكشاف والتحليق والصعود وبذلك يصل العقل إلى مستواه الرفيع ، ويبلغ غايته المنشودة .

فأصبح حرياً بأن يتلقى عن ربه الفيوضات، هابطة عليه من عالم العلويات ويرحم الله من قال مخاطباً الإنسان ، متحدثاً عن اللطيفة الربانية فيه

دواؤك فيك وماتبصر ودائك منك وماتشعر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

---

(١) الإسراء : ٧٠

فما الإنسان بدون عقل ؟ وما الآدمى بلا إدراك ووازع ؟ إن العقل معيار سليم للإنسان يحتكم إليه ، ومقياس صائب يقيس به الأمور فى دقة ويحكم على الأشياء فى انصاف . . فغايته النبيلة أن يحفظ صاحبه من السقطات ويصونه من العثرات ، ويرفعه من الوهدات وأن يرسم له حياة سداها العزة ولحمتها الهداية حتى لا تتبدد به السبل ولا تميد به الخطى(١)

ولا اعرف دينا رفع من شأن العقل ولا شريعة أزكت من مواهبه ، وقدرته حق قدره كدين الإسلام وكشريعة الإسلام .

وإذا تحدث الله عن قوم فى معرض الشرف والفخار . وفى مجال الإعزاز والتكريم وجدنا القرآن الكريم يبرزهم فى عدة آيات منها قول الله « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٢)

وقال تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون(٣) »

وقال تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »(٤)

ونعى القرآن الكريم على أولئك الذين ألغوا عقولهم وعطلوها عن الفكر والنظر والتأمل ولم ينتفعوا بهذه الملكات التى منحها الله لهم وكرمهم بها فى الوقوف على قدرة الصانع وجلال الخالق وقوة الرازق ولم ينقادوا إلى حظائر الإيمان وكمال الإسلام والإذعان للحق واليقين بل لم يسخروا عقولهم فى مجالات الحياة التى خلقوا من أجلها والعمل على استغلال الثروات والموارد الطبيعية والطاقات المتاحة من أجل سعادة الفرد وتقدم الأمم والشعوب .

---

(١) ميزان العقل د / عبد الفتاح محمد سلامه .

(٢) آل عمران : ١٩٠ — (٣) العنكبوت : ٤٣

(٤) الحشر : ٢١

قال تعالى « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون »(١)

ومن المؤسف والمخزى أن يتنكر الإنسان لهذه النعمة العظيمة التى كرمه الله بها واختاره للخلافة فى الأرض فيبدد هذه الطاقة من العقل والفكر والإدراك والوعى وراح يدمرها بالسموم والمخدرات ويطفىء فيها نور الإيمان واليقين .

قال تعالى « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »(٢)

---

(١) البقرة : ١٧٠ (٢) الحج : ٤٦

قيمــــة العقل

أن حدة الذكاء ، ويقظة الفكر ، وإستنارة الرأى ، عناصر لابد منها فى تكوين الإيمان الصحيح ، فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين ، وانتفت معها الروعة .

وحيث لا يوجد الإدراك الواضح ، والفهم الناضج يزداد القلب بالله معرفة ويقينا .

فالعقول الذكية وحـــدها هى التى تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله فى شتى الأمكنة والأزمنة(١) .

قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء(٢) » .

وقال تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٣) .

وبالنظر إلى الآية الثانية نجد أن الله تعالى يقول « لآيات لأولى الألباب » أى العقول التامة الذكية التى تدرك الأشياء بحقائقها وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله فيهم .

« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عيها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »(٤) .

---

(١) ليس من الإسلام للشيخ / محمد الغزالى : ٤٧

(٢) فاطر : ٢٨

(٣) آل عمران : ١٩٠

(٤) تفسير القرآن العظيم لإبن كثير : ٤٣٨/١

والعقول الذكية وحدها هي التي تميز الحق من الباطل ، وتعرف حقائق الوحي ، من نزعات الهوى وتلفيق الضلال « أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب »(١) .

والعقول الذكية وحدها هي التي تستفيد من عبر الماضي ، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل ، وقصص الأبطال من المصلحين .

قال تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب »(٢) .

ولا تكون الحكمة في معالجة الأمور ، والدقة في الحكم على الأشخاص والمسائل ، والعلم بالمقدمات والنتائج ، إلا لأصحاب العقول الراجحة والمدارك الواسعة والمواهب الرائعة .

قال تعالى : « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولوا الألباب »(٣) .

ولكن نجد من ذوي العقول القوية من يحيد عن مناهج الإستقامة وأصول الفضائل ، ومن يتمرد على تعاليم الدين .

بيد أن هذا يقل من قيمة العقل ولكنه يبين لنا خطورة الشهوات الجامحة ، والأهواء التي قد تصرف المرء عن الحق وهو يعرفه .

ثم إن محاربة الجهل أن يطغى على العقل ، لا تغني عن محاربة الفساد أن يتطرق إلى الفؤاد .

والنكسة التي أصابتنا في تاريخنا الطويل ، جاءت من فساد عقول العامة ومن فساد ضمائر القلة الحاكمة .

---

(١) الرعد : ١٩ (٢) يوسف : ١١١
(٣) البقرة : ٢٦٩

فإذا أصلنا العقول بالتعليم الشامل ، صحا الشعب ، فلم يبق أمام فاسدى الضمائر متسع للبقاء .

ذلك أن الشعوب المتململة قوة ، تيارها القذى والغثا(١) .

قال تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »(٢) .

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية للشيخ / محمد الغزالى : ١٢٥
(٢) الرعد : ١٧

حماية العقل

لما كان العقل هـو مناط التكليف فى الإنسان . وبه كرم ، وبه استخلفه الله فى الأرض ، وسخر له كل ما فى الكون وجعل له السيادة والسلطان عليه يسير وفق إرادته ومشيئته .

كان لابد من حماية هـذا العقل وصونه من الإعتداء عليه ، أو العبث به فكانت تعاليم الإسلام وتشريعاته التى تحرم على الناس .

تعاطى أى شىء من شأنه أن يذهب عقولهم ، أو يفسد عليهم لبهم وأفئدتهم(١) .

ونظراً لهـذه المنزلة العظمة التى يحتلها العقل من الإنسان ، والتى سما بسببها على سائر المخلوقات ، نهى سبحانه عن كل شىء يتسبب فى تعطيله عن القيام بمهمته التى خلق لأجلها ، ووظيفته التى أودع جسم الإنسان لأدائها قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون(٢) .

إلا أن هذا التعطيل قد يكون من الخارج بأن يعتدى عليه إنسان آخر بضرب أو تخويف أو نحوهما فيترتب على ذلك ذهاب عقله ، وفى هـذه الحالة يوجب الشارع الحكيم على المتسبب دفع دية كاملة وهـذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن مناط الإنسانية هو العقل أما إذا كان التعطيل من صاحب العقل نفسه بأن تنـاول شيئاً يغيب عقله بحيث يمنعه من القيام بوظيفته .، فقد رتب الشارع على ذلك عقوبة رادعة لقد كان التشريع الإلهى بتحريم المسكرات من أجل النعم على الإنسان وأبعدها

---

(١) هذا ديننا للشيخ/محمد الغزالى ١٦٣

(٢) الداريات ٤٦

أثراً فى حياته، سواء فى تنظيم علاقته بربه أو علاقته بمجتمعه، والإنسان العاقل هو الذى يستطيع أن يحافظ على هذا التنظيم بحيث يعطى كل ذى حق حقه(١).

إن الغاية من التشريع هى مصالح الناس، وهذه المصالح منها ما هو خاص ومنها ما هو عام. والمصلحة الخاصة تتعلق بأحد جوانب الحياة وينظمها حكم خاص فى التشريع، أما المصلحة العامة للتشريع فهى أن يكون هناك قانون عام يحكم الناس فى أقوالهم ومعتقداتهم بحيث لاتكون أفعالهم عبثا لذا كان من الواجب أن يكون الحاكم رسولا من قبل الله تعالى وتعاطى المخدرات يتعارض مع حفظ العقل بل يتعارض كذلك مع حفظ الدين والنفس والمال والعرض لأنه يفسد العقل بما يحدثه من تأثير سيء عند متعاطيه. فالمخدرات تصيب متعاطيها بالذهول والهذيان التحلل وتفقده القدرة على تقدير الأمور بل تجعله فريسة سهلة لنوبات من الضحك والهذيان وهى أمور حرمها الشرع بشكل قاطع بقوله عز وجل:

«لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم»(٢).

وقوله تعالى: «ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»(٣).

ويقول الرسول ﷺ:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»(٤).

---

(١) المسكرات وأثرها وعلاجها فى الشريعة الإسلامية د/ أحمد طه ريان ٦

(٢) النساء ١٤٨ (٣) البقرة ١٩٠

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب البر باب التحريم للظلم ٤/١٩٩٦ عن سالم عن أبيه.

وقوله ﷺ : «بحسب أمرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله »(١) .

وقوله «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »(٢) .

وإذا كان هناك من يدعى أن للمخدرات منافعاً فإن ذلك على فرض صحته فعلا عن عدم ثبوته لا يبرر بالمرة إباحة تعاطيها فليس كل ما يراه الناس مرغوبا يجب أن يباح أو يطلق قيـــده فليس كل ما يجمع عليه الناس صوابا .

قال تعالى : «وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله»(٣)

وقال تعالى : «ولو اتبع الحق أهو أءم لفسدت السموات والأرض»(٤)

فالإنسان مع منحه الحق قد لازمه الهوى ، والأهواء تصد العقل عن الإدراك كما أن المنافع العاجلة يضل العقل معها عن إدراك عواقبها كذلك فإن المنافع والمضار مشوبة بالمفاسد ، والمفاسد قد تصاحبه مصالح ولهذا كانت العقول فى أشد الحاجه إلى بيان الشارع للمصالح ، والمفاسد فكانت الشريعة هى مصدر الحسن والقبح قال تعالى :

«وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شراً لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »(٥) .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب بيان قول النبى ﷺ «سباب المسلم فوق وقتاله كفر ١/٨١ عن عبد الله بن مسعود

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب البر باب تحريم ظلم المسلم ٤/١٩٨٦ عن أبى هريرة

(٣) الأنعام ١١٦ (٤) المؤمنون ٧١

(٥) البقرة ٢١٦

إذن فإن تعاطي المخدرات فضلا عن الإدمان عليها يتعارض مع المصالح التي هي غاية التشريع فهو معصية مما منحت الشريعة الإسلامية ولي الأمر سلطة العقاب عليها .

ومن تتبع الفقهاء للأحكام تبين لهم أنها وضعت لمصالح الناس وهو ما يدل قول الله سبحانه وتعالى :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(١) .

وأساس الرحمة جلب المنفعة ودفع المضرة(٢) .

ويقول ابن القيم في ذلك « الشريعة مبناها وأساسها على حكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد »(٣) .

ويقول الإمام الشاطبي :

« وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً » وعندما حرم الإسلام المخدرات فإنه كان يستهدف حفظ إيمان المؤمن وسلامه وعقله وبدنه وماله .

وما حرم الإسلام شيئاً إلا إذا كان فيه ضرر للإنسان سواء أكان ضرراً مادياً أم معنوياً والمخدرات أضرارها مادية ومعنوية معاً لذلك شدد الفقهاء في عقوبة بائعها ومتعاطيها تشديداً بلغ حد تطبيق عقوبة القتل والصلب عليهم وهي أشد عقوبة يمكن أن يتعرض لها الإنسان . وذلك

---

(١) الأنبياء ١٠٧

(٢) موقف الشريعة الإسلامية من تعاطي المخدرات د / أحمد المجذوب ٨١

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ١٢٨/١

لأن المخدرات قد تقتل متعاطيها ، وتبدد ماله ، وتجلب له الفقر ، فضلا عن أنه يفقد إيمانه وعقله ، ويصبح بلا إيمان ولا عقل . وفى الإسلام قاعدة أصلية وهى أن المؤمن القوى خـــير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف ... وقد أثبتت الدراسات الطبية أن المخدرات تفقد الجسم مناعة فلا يقدر متعاطيها على مزاولة أى عمل .. مما يجعله عبئاً على المجتمع وعالة على غيره كما يصاب بالخمول والكسل ولا يستطيع أداء العبادات ويضيق بإنفاق ماله إلا على المخدرات ومن ثم لا يصبح شرة مقصوراً إلا على نفسه وإنما يمتد للجميع فهو مثل « سيء » للشباب وعضو أشل . يأخذ ولا يعطى ويستهلك ولا ينتج وليس فى الإسلام شيء أشد مقتا من إنسان عاطل ، لا يؤدى ما فرضه الله عليه من حقوق . . . ويتناول الخبائث ويتغاضى عن الطيبات ولو نظرنا إلى مبادىء الإسلام نظرة فاحصة لرأينا أن القرآن الكريم يحث على التأمل والتدبر ، حتى يزداد المؤمن إيماناً بطلاقة القدرة . . . ومن هنا كان الحفاظ على العقل حفاظاً على الإيمان وصونا للعقيدة .. أما من فقد عقله تحت تأثير مخدر تعاطاه ودفع ثمنه من قوته وقوت أولاده ، فإنه يفقد أعلى وأثمن ثروة منحها الله له . إذ ينفصل عن إيمانه ووعيه وأدراكه وتتعطل وظائف القدرة فيه على العمل وعلى العبادات . وتنطفىء فيه جذوة النشاط والطموح .

ولعل الحكمة من تشديد عقوبة المخمورين ومتعاطى المخدرات فى الإسلام أنهم جحدوا نعمة الله فى عقولهم فعطلوها بتأثير المخدرات وجحدوا نعمة الله فى مالهم ، فبددوها فى السموم وجحدوا نعمة الله فى صحتهم فأهدروها بتناول ما نهى الله عنه وحرمه على الإنسان(١)

---

(١) المسكرات د/أحمد على طه ريان ١١٢ دار الإعصام،